# الباحث: كائن اجتماعيّ ثقافيّ يبحث عن هويّة

أبوبكر باقادر

أسعى في مقالي هذا لأجعل سيرتي الذاتية موضوع دراسة موضوعية، وسأعتمد بوجه عام على منطلقات بيتر برغر وتوماس لوكمان في كتابهما **البنية الاجتماعية للواقع**[1]، الذي ينطلق من فكرة أننا في الواقع بقدر ما نبدع واقعنا نكون في الوقت نفسه نتاجه وحصيلته، وذلك على مستويين: مستوى موضوعي وآخر ذاتي، في شكل تنشئة اجتماعية وإعادة تنشئة وفي شكل مؤسسات اجتماعية وتكوين جسماني وقدرات ومهارات فطرية تمكن الفرد من المشاركة في المحيط والسياق الاجتماعي الذي يجد نفسه فيه وبالتالي تحدد أدواره ومكانته فيه.

وفي محاولتي لتتبع مراحل سيرتي الذاتية وأثرها في تكوين تصوري للمعرفة عموماً واهتماماتي البحثية على وجه الخصوص، سأقسم المراحل العمرية لمراحل توازي المراحل العمرية التي يمر بها الكائن البشري في أي سياق اجتماعي / ثقافي، لكن مع التركيز على أنني سأجعل مراحل التعليم العامة نقاطاً مرجعية أقدم من خلالها التحولات التي أشعر أنني مررت بها. لكن قبل أن أبدأ بعرض ذلك أود أن أوضح أنني أرى الأمر ـ بشكل استرجاعي من الذاكرة ـ بوصفه سياقاً عاماً أعيد بناءه في ضوء ما توصلت إليه من نضج، ومن ثم فإنني لا إرادياً أسقط على تجربة أو حادثة في الماضي ما أعرفه الآن!

## أولاً: النشأة والتكوين

### ١ ـ الوسط المكي

مكة كانت مسقط رأسي، ولدت فيها في ربيع عام ١٩٥٠، أي أنني من أبناء النصف الثاني من القرن العشرين، وهي العقود التي شهدت مكة المكرمة فيها

---

(١) انظر: Peter Berger and Thomas Luckmann, *The Social Construction of Reality* (New York: Doubleday & Company, 1967). وقد قمت بترجمته إلى العربية وهو قيد النشر عن دار جروس برس.

تغيرات تميزت بوتيرة سريعة، كما شهدت تحولات كيفية عميقة أدت إلى تغير البنية الاجتماعية الثقافية كما سنرى. لكن، وعلى الرغم من هذه التحولات العامة السريعة التي سعد أبناء جيلي بأن يكونوا فيها شهوداً على تلك التحولات، فإن مكة تبقى المدينة التي تتميز بالتعدد والتنوع، فسكانها من أعراق وثقافات مختلفة يختلط فيها الآسيوي بالإفريقي والعربي بالعجمي والأسود بالأبيض والمتحدث بالعربية بمن لا يحسنها. ويتولد الإدراك بهذا التعدد والتمايز الثقافي لدى السكان منذ مراحل مبكرة من حياتهم، فيعدون أكثر ميلاً إلى التعرف إلى التفاصيل وتميزها. فالمكي مثلا لا يرى سكان جنوب شرق آسيا مثلا كتلة واحدة وإنما يفرق بينهم سواء من حيث الخصائص الفيزيقية أو العائدات في الأكل أو اللباس أو اللغة (وبخاصة في الأحرف التي يمكن أن ينطقها هذا الفريق ويعجز عنها ذلك الفريق)، فهم بالنسبة إلى المكي هندي وبنغالي وسيلاني وباكستاني ومالديفي ونيبالي وبرماوي وغيرهم، بل يقابل إلى ماليباري وفتن وكشميري. ويصدق الحال على بقية المجموعات البشرية التي تكوّن جزءا لا يتجزأ من الوسط الاجتماعي المكي[٢].

وفي مكة، تقليديا، أهلها يعيشون فسيفساء ثقافياً[٣] بحيث تغلب على بعض الأحياء كثرة المنتمين إلى عرق أو ثقافة ما، يكونون ثقافة فرعية تتقاطع مع الثقافة المكية المشتركة، فهم مع ذلك يتزاوجون ويتداخلون بعضهم ببعض. حتى إنه غدا من المألوف أن يكون داخل الأسرة الواحدة خليط ومزيج فريد من الثقافات والألوان والسنح والأشكال. وعلى الرغم من تفرد اللهجة المكية بأسلوبها الخاص في الأصوات والبنية النحوية المتميزة[٤] فإن بعض الأحياء بسبب غلبة ثقافة ثانوية على معظم أفراد الحي، يجيد لغة أخرى إضافة إلى لغته كالهوسا أو البرماوية أو الأوردية، وغالباً ما تكون بأسلوب ومفردات لا تشبه ما هي عليه في موطنها الأصلي الآن[٥].

ومكة التي نشأت فيها تتميز في المأكل واللباس بتعددية تعكس ما ذكرت. فبالنسبة إلى المأكل يكاد يكون المطبخ المكي من اكثر مطابخ العالم الإسلامي تعدداً وتنوعاً، فهو مطبخ منفتح على جميع الأطباق والأكلات الموجودة في العالم الإسلامي ـ على أن بعض أطباقه أصبحت مشتركة وتمثل جزءاً لا يتجزأ من المائدة المكية ( الحجاز إجمالاً) وهي في هذا أيضاً تتميز بخصوصيتها، فمثلا تبنّى سكان مكة نوعاً من الخبز يسمى «تميس» من وسط آسيا وارتبط أكل هذا النوع من الخبز بالفول المدمس[٦]. ويجل المكيون الأرز، بحيث أصبح لكل نوع

(٢) انظر ما كتبه هورخرنيه المستشرق والرحالة الهولندي، الذي لفت نظره معرفة المكيين لسكان أرخبيل مالايو وان كان عاب على السكان الخطأ في التسمية، اقصد إعطاء تسمية خاصة لا تتوافق طريقة لفظ تلك الأسماء في لغاتها الأصلية.
C.Snouck Hurgronje, *Mekka* (London: Luzac & Co., 1931), pp. 228-292.

وقد ترجم الجزء الثاني من الكتاب إلى العربية في النادي الأدبي في مكة.

(٣) درس العديد من الباحثين لهجة مكة، منهم هورخرنيه في كتابه المشار إليه وكذلك فعل الباحث باكلا في كتابه عن استخدام الفعل في اللهجة المكية.

(٤) يذكر العديد من المكيين ان اللهجة التي يستخدمونها من لغتهم الأصلية غالبا ما تكون لهجة ريفية، وهم يحتفظون بها على الصورة التي كانت عليها منذ مغادرتهم، الأمر الذي يجعل حديثهم مع أهلهم من موطنهم الأصلي في غاية الصعوبة أحياناً.

(٥) الغريب في الأمر أن أصحاب الخبز هم من أهل سكان الوسطى وهم لا يأكلون الفول المدمس، والمصريون أهل الفول المدمس لا يعرفون هذا النوع من الخبز.

(٦) انظر: زبيدة موصلي، صفية السليمان وسامية الحركان، **فن الطبخ السعودي** (جدة: جمعية النهضة النسائية الخيرية، ١٩٨٤)، الذي يكثر استهلاكه لا يزرع في السعودية.

من أنواع الأرز المختلفة مناسبات ترتبط به، فإلى حفلات الزواج يقدم الأرز الكابلي أو البرياني (من أفغانستان والهند) وفي العزاء الأرز بالحمص وفي الأيام المطيرة الأرز بالعدس وفي السهرات المسائية، وبالذات الشتوية، السليق أو العربي، وفي الأيام الاعتيادية الأرز البخاري وهكذا[٧].

أما بالنسبة إلى اللباس، فرغم انتشار الملابس العربية للرجال انتقل بعض لباس العالم الإسلامي إلى حياة السكان، فانتشر مثلاً لبس «الفوطة /الأزار» وهي نوع من الباتيك كان الناس يرتدونه داخل المنازل، إضافة إلى أنواع العمائم والعباءات المختلفة التي اختفى جزء كبير منها اليوم. ويصدق الحال في لباس المرأة[٨].

ويؤدي الحرم المكي ـ وهو المركز الذي كانت تدور عليه حياتنا في مكة ـ دوراً أساسياً في التفتح على العالم الخارجي عبر ضيوف الرحمن الوافدين كل عام جالبين معهم ذكريات وأفكاراً وسلعاً وأشياء من أقطارهم، بحيث يجد المكي نفسه معرضاً كل موسم لما يقدمه زوار مكة. ورغم أن معظم الحجاج في الغالب من المسنين والريفيين فلا حج يخلو من أعداد لا بأس بها من المثقفين ومن سكان المدن الذين يوفرون من خلال تفاعلهم مع السكان، وبخاصة قبل موسم الحج وبعده، فرصة ذهبية لتبادل الآراء للتعرف إلى الأفكار والطروح الجديدة.

والمكي رغم تعرضه لهذا الزخم الشديد من الزوار الذين يجددون حياته ويمكنونه من التفاعل الثقافي، الذي يفترض التعددية واحترام الاختلافات بل والسعي للتعرف إلى تلك الاختلافات والتعامل معها، يملك كل عام فترة طويلة، يخلو فيها لنفسه ويعيش حياة مكة الوادعة بتقاليدها الخاصة[٩].

في هذا الوسط وعلى مشارف الحرم المكي نشأتُ وترعرعتُ، وكانت الكوزموبوليتانية الحذرة أبرز ما ترك تأثيره فيّ، وأقصد بذلك الانفتاح داخل نسق ديني ثقافي محدد. لقد سمح لي هذا الوسط أن أدرك ـ منذ البداية ـ وجود عوالم وثقافات، ينطلق بعضها من مسلمات ورؤى ربما لا تكون مشابهة لما اعرف في وسطي الأسري، لكنه تعدد وجدته موضع احترام وتقدير ممن حولي، الأمر الذي جعلني أجبل على احترامه منذ نعومة أظفاري. إن هذا الوسط هو الذي كوّن وعيي في المراحل الأولى التي تلقيتها في مكة آنذاك والتي كانت أيضا عالمي الجغرافي، فأنا لم أبارح حتى نهاية الثانوية العامة حدود الحجاز ومدنه: مكة وجدة والطائف والمدينة.

## ثانيا: الوسط العائلي والحي

أما الوسط الآخر الذي أدين له بتكوين واقعي الاجتماعي فهو الوسط الأسري الذي انتمي إليه. فأنا من أسرة من الطبقة الوسطى وعلى وجه الخصوص من أسرة كان يعمل أفرادها في التجارة الصغيرة. الأمر الذي جعل عالم السوق بعمليات البيع والشراء وعلاقات التبادل والتدقيق في الحسابات جزءاً من النشأة المبكرة لواقعي الاجتماعي. فقد حرص والدي منذ طفولتي أن أقضي ساعات يومياً بجوار «الدكان». وكم كان عالم «الدكاكين» متنوعاً ومتعدد

(٧) أنظر: Heather Coyler Ross, *The Art of Arabian Costume* (London: Arabesque, 1981).

(٨) انظر ما كتبه هورخورنيه في هذا الخصوص في مكة، ص ٣-٦٠.

(٩) نسبة إلى الشريف عون وهو واحد من الأشراف الذين حكموا مكة وكان مشهورا بالقسوة.

الوجوه والمـزايا. ففي الشارع العتـيق «شارع عون»[١٠] الذي تميز بتنوع مـا يعرضه من سلع وبضائع ومـا ارتبط به من شوارع تجارية أخـرى قريبة، جـعلتني افتح عينـي مبكراً على تنوع السلع: أدوات منزليـة، ملابس، قـماش، سـاعات، إلكتـرونيات، حلويات وسكـاكر، إضافـة إلى المصارف والخدمات المـالية، وغير بعيـد «المنشية» بجزارتهـا وبائعي الخضروات والأطعمة الشعبيـة من شوربة ورأس مندي ومشويات وتوابل واجبان وخـبر. لقد كان فعلا عـالما قائما بذاته يمكن من خلاله التعرف إلى طبقات المجـتمع المكي وفئاته، إضافة إلى الزوار الذين عليهم شراء إما مـا يلزمهم أو هدايا مكة. وللسوق مـواسمه فهـو مختلف في ليالي رمـضان، عنه في مواسم الحج أو أيام الكسـاد الذي يتفرغ فـيه أصحاب المـحلات التجـارية إلى تبادل الزيارات والأحاديث الاجـتماعـية. ويعج السوق بمـرتاديه،وهم ليسـوا بالضرورة من السواقـة، فهناك: السمـاسرة والدلالون وتجـار الجملة والمـتفرجـون والمعـاكسون والسـراق وعمـال النظافة ومسؤولو البلدية وغيرهم الكثير، والمرتادون من الجنسين ومن الأعمار كافة ولكل أسلوبه في التعامـل. ولما كان سوقاً تـقليدياً فإنه يتمـيز نوعاً ما بالازدحـام الدائم. هذا الوسط فرض علي تجربة حسن التصرف والقدرة على التعامل مع الحياة العامة بإيقاعاتها المختلفة وما تتطلبه من استجابات سريعة[١١].

أما الجانب الآخـر فكان الوسط العائلي: حياة البيـت، التي تميزت بأنها كانت حـياة تقليدية تعج بالأقارب والزوار بصـحبة الجـدات والعمات، فلقد كـان منزلنا لا يكاد يخلو من الزوار في النهـار من النساء وفي المـساء من زوار الأب والعم، وكـان الضيـوف الزوار أيضاً من أمـزجة ومشارب وخلفيات مختلفة من: الشعراء الشعبيين والتجار والأقارب والأصدقاء والمعارف.

وكان العـالم المكمل لعالم الأسـرة هو عالم الحارة عـموما، وعـالم الأزقة المـحيطة بدارنا. وكان مركز الحي «برحـة»أو ساحة هي عبارة عن فضـاء كبير كان يجتمع فـيها أبناء الحي كل عصرية للعب وبخاصة لعب كرة القدم وغيرها من الألعاب. أما عالم الزقاق فقد كان بسبب عدم انتشـار الكهرباء عـالم الظلام والخوف والأشـباح، وكـان البعض يتـعمـد ذكر قصـص الغول والسعـلاة والجن، وكانت هذه العـوالم تكوّن واقعاً حـيّاً في مـخيلتنا وما يتـرتب على ذلك من خوف. لكن عالم الزقاق أيضاً هو عالم الإلفة والصـداقة بين الجيران، وعالم المراجيح والألعاب الشعبية وبخاصة في ليالي رمضان الكريم.

لقد تركت حـياة الحارة والجـوار في نفسي أبلغ الأثر وكانت السكـنى في الحي هي ارتباط ثقافي واجتماعي، فالجيران هم كذلـك لفترات طويلة. وكان الحي يعكس تنوع المدينة، فالأحياء لم تكن على الإطلاق مـتجانسـة طبقيـا. وغالبا مـا تتداخل حيـاة الحي بحيـاة الأسرة، فلم تكن صداقاتنا فقط صداقات أفراد وإنما هي صداقات أسر، بل إن التكافل والتراحم والمساعدة كانت من أبرز القيم في حياة الحارة المكية. حتى إن الأسر كانت تحرص على ألاّ تنام وفي الجوار من هو جائع، وكم أرسلتني أسـرتي أحمل بقايا عشائـنا لجار نعلم حاجته إلى ذلـك. لقد كانت هذه اللمسات الإنسانية تؤكد التقارب والإلفة وترسخ المزيد من التفهم المتبادل.

لكن كـأطفـال كنا نشعـر بأن حـجم هذه الصـلات الحميـمة يـحد من تمـتـعنا بشيء من

(١٠) انظر ما كتبه كليفور غيرتس عن حياة السوق في العالم العربي:
Clifford Greetz , *Meaning and Order in Moroccon Society* (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), pp.123-311.

(١١) انظر:
Edward Hall, *The Hidden dimension* (New York: Doubleday, 1969).

الخصوصية داخل حرم دارنا، وبخاصة بعدما اشترى والدي تلفزيوناً، وكان أول من فعل ذلك في حينا، فلم «يتورع» بعض الجيران من نقل أمسياتهم إلى منزلنا، وهكذا لم تعد سهراتنا العائلية خاصة. وحينما أفكر في الماضي الآن، يظهر لي أن الخصوصية المكانية لم تكن أمراً ذا بال ولم يكن يلتفت له على اعتباره في تكون الذات[١٢].

## ثالثاً: الوسط المدرسي

كانت المدرسة وعوالمها، وبالذات في المرحلة الابتدائية، هي مرحلة انتقال جوهرية في حياتي، انتقال من محضن الأهل والرعاية والتدليل لعالم الأتراب والمعلمين، عالم الصغار والكبار في آن واحد. وكان أول عام دراسي هو عام الانفصال عن خصوصيات البيت، لكن ما ساعدني على الانتقال أنني لم أكن وحدي وإنما معي ابن عمي الذي أسكن معه البيت نفسه ويشاركني كل عالمي. كذلك ما ساعدني هو أن المدرسة ليست بعيدة كثيرا من حارتنا، وكانت بداية العام الدراسي في مسجد، الأمر الذي خفف علينا كثيراً. ولقد سعدت في هذه المرحلة بثلة من المعلمين الأكفاء الذين تركوا آثار بالغة في وجداني وعقلي، إذ كان بعضهم لا يكترث كثيرا بمجرد تلقيننا مبادئ القراءة والكتابة والحساب وإنما سعى لتعليمنا حب النظام والمشاركة بالرأي والتفكير المنظم إضافة إلى أن معلماً آخر سعى لتعريفنا إلى المحيط الفيزيقي بظواهره الطبيعية، فعرّفنا إلى أهم الخصائص الطبوغرافية المحيطة وحيوانات ونباتات المنطقة. على أنني سعدت كثيراً أيضاً بأستاذ التربية البدنية الذي كان بفكاهته ولطفه يحول النشاط الرياضي إلى نشاط ترويحي. على أن تجربتي الأولى جعلتني اصطدم بعالم العقاب والصرامة ممثلة ببعض الأساتذة الذين كانوا يعاملوننا بقسوة وحزم، الأمر الذي ولد عندي ضرورة احترام السلطة. وكان لموقع المدرسة الابتدائية أثر مهم في فتح عيني على عالم البدو، إذ كانت مدرستي تشرف على سوق الجمال وحوله كان يُقام بعض أسواق البدو لعرض منتوجات السمن والعسل، وفي المقابل كانوا يشترون ما يحتاجون إليه من قماش وملابس وخلافه. كذلك كان طلاب المدرسة على تنوع عرقي كبير[١٣].

مثّل الانتقال إلى المدرسة المتوسطة ابتعاداً كبيراً من المنزل، فلقد كانت تقع في أقصى الشمال من مكة.

وقد كان الذهاب إلى المدرسة الابتدائية يتم سيراً على الأقدام، أما الآن فالذهاب إلى المدرسة يتطلب استخدام الحافلة إضافة إلى سير مسافة طويلة. ومن أبرز الفروق التي لاحظتها هي أن الخطاب الرئيسي الذي قابلنا به المعلمون وإدارة المدرسة كان يؤكد أننا انتقلنا نقلة نوعية، وأصبحنا نسمع عبارة «يا شباب» تتكرر ولم يعد أحد يناديا «يا ولد». لم تكن الصورة واضحة لي، لكنني لاحظت اهتماماً من طرف والدي الذي أخذ يسألني عن ماذا أعمل ؟ ومع من أقضي أوقاتي ؟ وخلافه من أسئلة لم أعتدها من قبل [١٤].

(١٢) كانت أغلبية الطلاب من أصول إفريقية ويمنية وبلاد شرق المتوسط وشمال افريقيا.

(١٣)تقليدياً يظهر أن الآباء في مكة كانوا يعتقدون ان الأبناء عندما ينتقلون إلى مرحلة المراهقة والبلوغ يصبحون من مسؤولياتهم، أما في مرحلة الطفولة فهي من مسؤولية الأمهات.

(١٤)لم يتمكن بعض الطلاب من أداء الامتحانات بسبب الحرب، وكانت الناس عموما تتابع أخبار الحرب ومن ثم لم يكن للطلاب القدرة على الدراسة والاستعداد للامتحانات !

بطبيعة الحال لفت نظري ما يسعى له العديد من الأساتذة من تأكيد أننا مقبلون على الانتقال إلى مرحلة تتطلب جداً واجتهاداً أكبرين وتختلف عما تعودنا بذله في المرحلة الابتدائية. وكان من أهم ما جد علينا اللغة الإنكليزي، التي سعيت لتعلمها بجد إيماناً مني بأنها ستفتح آفاقاً جديدة للمعرفة وستمكنني من التواصل مع زوار مكة الذين لا يجيدون العربية. ولقد فتحت لي آفاقاً كان من أهمها أن تمكنت من الحديث مع حجاج جنوب إفريقيا من ذوي الأصول الملاوية والمعروفين في مكة بـ «الكيفيق» الذين كنت أشعر بأنهم أناس يملكون بعداً إنسانياً عميقاً. كذلك كانت مادة التفسير، التي فتحت آفاقاً جديدة لفهم شيء من آيات الذكر الحكيم. ونظراً إلى أن الأهل أصبحوا يهتمون بأوقات فراغنا على نحو أكبر مما كانوا، فلقد أصبحنا نكثر الذهاب إلى «الدكان» نقضي سحابة النهار مع الوالد إما في الدكان أو في الحرم المكي، ولم نعد نشارك في الأنشطة الرياضية بعد أوقات المدرسة كما كنا نفعل.

وكانت المدرسة تجتذب طلاباً من أحياء مختلفة فوجدت نفسي أتعرف إلى زملاء دراسة، إضافة إلى زملاء الحارة، الأمر الذي وسع من دائرة الأصدقاء وأصبحنا نلتقي أحياناً في الحرم المكي للدراسة وبخاصة في نهاية العام استعداداً للامتحانات النهائية. وعلى الرغم من ما تركته هذه المرحلة الدراسية من أثر في نفسي، فهي لقصرها أشعر أنها كانت بمثابة المعبر لما هو أهم وأبلغ أثراً، إذ بعد ثلاثة أعوام انتقلت إلى المرحلة الثانوية وكانت المدرسة في حي العزيزية بالجنوب الشرقي لمكة، وتقع على مشارف مكة وكان عدد الطلاب فيها كبيراً جداً، وهم قادمون من مدارس مكة المتوسطة المختلفة والتنافس على الالتحاق بها شديد، وكانت هذه المرحلة هي المرحلة الحاسمة لإعداد الطالب للدراسة الجامعية ومن ثم المهنية التي سينخرطون فيها، وبخاصة أن تحديد المسار: علمي أم أدبي، يتم في العام الثاني من الالتحاق بها. ووجدتني مشدوداً بين المسارين، أرغب في الدراسة الأدبية لكنني متفوق في الدراسة العلمية أيضاً، وهي محط إعجاب وإكبار الجميع. وكانت إدارة المدرسة رائعة هيّأت كل الظروف التي من شأنها جعل الطالب اكثر قدرة على الاختيار المناسب، وان كانت تتدخل أحيانا لتوجيه الطالب بحسب قدراته وإمكاناته الفعلية.

وكنت في هذه المرحلة الدراسية أبرمج قراءاتي الإضافية وبخاصة في فترة الصيف، إذ كنت اقضي ساعات طويلة في مكتبة الحرم المكي، وأتذكر أنني في أحد السنوات انهلت على قراءة مسرحيات توفيق الحكيم وروايات نجيب محفوظ وعلي باكثير وسواهم. وفي صف آخر، كان آخر عام دراسي في الثانوية العامة انكببت على أعمال العقاد الإسلامية وكتب سيد قطب ومحمد قطب.

بعد أن أدينا امتحانات العام الدراسي عشت ـ كما عاش معظم زملائي، تمزقاً شديداً عقب أحداث حرب الأيام الستة، وأنني أتذكر ما كنت أشعر به من وعي سياسي إزاء ذلك الحدث الجلل[١٥].

وكان آخر عام في الثانوية وهو يسمى «توجيهي» من أهم سنوات الدراسة على الإطلاق. فقد جندت نفسي للحصول على أعلى تقدير ممكن، الأمر الذي جعلني أبذل جهداً مضاعفاً وعلى

(١٥) كانت طريقة معاملة المسؤولين عن المكتبة في كلية البترول مختلفة نوعيا عما كنت قد تعودته سابقا وهو ما لاحظته لاحقا فيما يسمى المكتبات العامة في أميركا وكذلك في المكتبات الجامعية من تقديم عون ومساعدة إلى القارئ.

نحو منظم. وقد حصلت فعلاً على نسبة مئوية مرتفعة جداً مكنتني من التقدم لاختيار الجامعة التي أرغب في الالتحاق فيها. إذ تقدمت لامتحان القبول بكلية البترول والمعادن، واخبرني فريق المختبر بقبولي في الجامعة وحدد لي موعد القدوم أيضاً.

وكان علي أن أهيئ نفسي للذهاب إلى الظهران حيث الجامعة، وكانت هذه أول مرة أغادر فيها الأهل والخلان ومكة وأجوائها. وكان علي أن ابدأ بمساعدة أحد الزملاء ممن عاشوا طرفا من حياتهم في مصر لشراء ملابس «إفرنجية» لتلك الكلية.

## رابعاً: الوسط الجامعي

لم تكن الدراسة الجامعية مجرد مرحلة دراسية جديدة وإنما نقلة نوعية في حياتي بكل المعايير. كانت أجواء السنة التمهيدية رائعة، درست فيها مزيداً من الإنكليزية إضافة إلى الرياضيات والفيزياء والكيمياء. وكان علينا تعلم كل شئ بالإنكليزية حتى التربية البدنية ! وكانت برامج الترفيه في الكلية في غاية الروعة، إذ كان في إمكاننا مشاهدة فيلم كل أسبوع إضافة إلى حفلات ومهرجانات الوحدات السكنية التي كنا نقيمها في ليالي رمضان وفي نهاية العام الدراسي. وقد كان طلاب الكلية من جميع أرجاء المملكة إضافة إلى طلاب من بعض الأقطار العربية والاسلامية الشقيقة، الأمر الذي فتح أمامي صداقات جديدة وعوالم اجتماعية أوسع.

كانت الدراسة في الجامعة على الطريقة الاميركية وكانت تجربة جديدة تماماً علينا التأقلم فيها على الامتحانات الكثيرة المتلاحقة، الأمر الذي جعل الحياة في الظهران على الرغم من رتابتها، مليئة بالأنشطة والدراسة. وكنت أقضي تقريباً معظم أوقاتي إما في الفصول الدراسية أو في المكتبة التي فتحت أمامي آفاقاً واسعة سواء في العلوم الطبيعية أم في الآداب والفكر الحديث بالإنكليزية والعربية. وقد تعلمت في هذه المرحلة أهمية المكتبة العامة وما يمكن أن تقدمه إلى القراء من خدمات، إذ كان يشرف على المكتبة فريق يعمل على راحة الرواد والأخذ في يدهم ومساعدتهم وتلبية طلباتهم[١٦].

أما مقهى الكلية فقد عرفني إلى القهوة الأميركية التي وجدتني أتعودها بسرعة. وفي ذلك المقهى كانت تدور النقاشات والأسئلة عن الامتحانات وقضاء أوقات طيبة في صحبة الزملاء.

انتهى الفصل الدراسي الأول بسرعة وكان علينا أن نأخذ امتحانات الجامعة الأميركية مرة أخرى. وقد أدى نجاحي ونجاح ثلة من الزملاء إلى قرار المشرفين علينا أن ننتقل إلى السنة الجامعية الأولى، كان هذا مصدر اعتزاز لنا.

لقد كان العام الجامعي الأول مفيداً جداً في حياتي، إذ استطعت التكيف مع الظروف الجديدة وكذلك استطعت أن أكون من المتفوقين، الأمر الذي ولد عندي إحساساً بالثقة اقترن بتحولين مهمين في حياتي: أولهما الاستقلال، وهو أمر متعدد الجوانب في حالتي، إذ بعدما غادرت مكة التي كنت أعيش في كنفها حياة اعتمد فيها تماماً على أسرتي أصبحت في الظهران مضطراً إلى التعود حياةً فرديةً اعتمد فيها على نفسي وعلى المؤسسة الجامعية التي أعيش في كنفها، والتي

(١٦) أي طلب الركوب في إحدى السيارات في الشارع العام مجانا.

كانت تحترم خصوصياتنا، مع بعض الرقابة، فالأبواب في السكن تغلق بعد الثانية عشرة مساء، لكن ليس هناك من يراقب ما إذا قضى الطالب الليلة داخل السكن أم لا ؟ وكان هذا أمراً مهماً لنا إذ تمكنا بسبب هذه الحرية من زيارة المدن المجاورة. أما ثانيهما فكان الاستقلال الاقتصادي، إذ بعد التعود الاعتماد الكلي على الأسرة، أصبحنا في الكلية نعتمد على المكافأة التي كانت تقدمها الجامعة إلينا كطلاب، صحيح أنها كانت مكافأة متواضعة نسبياً، أقل من مئة دولار، لكنها كافية لاستقلالنا وتعودنا تدبير أمورنا المالية والصرف على أنفسنا وبطريقتنا الشخصية. وكان علي أن أفكر ليس بالكيفية التي اصرف بها المكافأة فقط وإنما بالادخار منها لأمر في غاية الأهمية في حياتي. وفعلاً تمكنت من إدخار بعض المبالغ لا تزيد كثيرا على مئتين وخمسين دولاراً.

وبسبب ذلك الإدخار أخذت أفكر في أول صيف في حياتي الجامعية في توسيع رقعة رؤيتي الاجتماعية والثقافية بالسفر إلى حدود أكبر. كانت تتلبسني فكرة السفر إلى خارج المملكة العربية السعودية. بدأت الفكرة بالسفر إلى البلدان العربية. وهكذا سافرت إلى بيروت في شهر آب/ أغسطس على أساس أنني بعد جولتي سأعود مباشرة إلى الظهران والدراسة. وهكذا كان علي أن تكون نقطة انطلاقي الأولى إلى لبنان، حيث علي أن أجرب أول تجربة انتقال إلى مجتمع تعددي الملل والنحل، فأنا وان تعودت التعددية الثقافية لكنها كانت تعددية داخل دائرة الإسلام وشعوبه وفرقه فقط. لكن ما أن وصلت إلى لبنان حتى كان علي أن أتعرف إلى النصرانية وأن أتعرف إلى التشابه مع الاختلاف، بدلاً من الاختلاف مع التشابه ! فما تعودته في مكة كان الاختلاف في اللغات والعادات والتقاليد والألوان، لكن الجميع كانوا مع ذلك من ملة واحدة ووجهة دينية واحدة ويملكون تصورات كونية متماثلة. أما ما خبرته في لبنان فهو التشابه في اللغة والعادات والأشكال مع اختلاف في العقائد والتصورات الكونية، الأمر الذي جعل مفهوم التعددية لدي يتوسع، ويتوسع بصورة أكبر لاحقاً عند سفري إلى خارج العالم العربي. كانت سفرتي الأولى إلى بلدان شرق المتوسط: لبنان وسوريا والأردن والعراق وأخيراً الكويت فالسعودية. وكان علي أن أشاهد دول المواجهة العربية في تلك الفترة العصيبة الزاخرة بكل توتراتها ومشاكلها، وكان علي في تجربتي الأولى أن أتدبر أموري وبخاصة المالية على الرغم من محدودية ميزانيتي.

وتكررت التجربة، وتوسعت الدائرة، فسافرت إلى أوروبا مستفيداً من الفرص التي كانت تتاح للشبان آنذاك. وفي العام الأخير من دراستي يممت نحو آسيا لزيارة إيران وباكستان والهند وأفغانستان، وقد أفدت كثيراً من تلك الزيارة، إذ جعلتني أتفهم من كثب هذه الثقافات والأمم وكذلك أتفهم لاحقاً التغيرات التي مرت بهذه المنطقة.

وقد تميزت الحياة الجامعية في كلية البترول والمعادن بتعدد الأندية الطلابية المختلفة، وغناها ونشاطها وبما تقدمه من فرص إلى طلاب الجامعة، ووجدتني مدفوعاً إلى الإشتراك في أكثر من نشاط، فكنت عضواً في نادي الصحافة والتصوير والفنون والتمثيل والأنشطة الاجتماعية وغيرها، ورأست لفترة وجيزة جريدة الرابطة الطلابية واشتركت في الأنشطة الرياضية والمسرحية في الكلية. وأكاد أجزم أن الفائدة التي حصلت عليها من هذه الأنشطة اللاصفية تكاد تعادل أو تزيد على ما أفدته في الفصول الدراسية النظامية.

ومن أهم ما كان يشغل بالي هو ما الذي أود أن أكونه، ونظراً إلى أنني لم أكن أرغب في أن

أكون مهندساً تخصصت في الرياضيات، لكنني كنت اعتقد أنني أميل اكثر إما إلى الفلسفة أو إلى دراسة الأديان دراسة مقارنة. ولقد أبديت ذلك لبعض المدرسين في الكلية، ويظهر أن أحدهم (ظفر الأنصاري) اهتم بموضوعي وتحدث معي ملياً واقترح علي قراءة كتاب دانيل ليرنر **انتقال المجتمع التقليدي**[١٧] ثم طلب مني أن أحدثه عن الكتاب وأفادني أن ما أرغب في تعلُّمه يقع ضمن دائرة علم الاجتماع، إلا أنه لم يدفعني إلى شيء محدد وكان علي أن أفكر في الأمر بنفسي.

تخرجت من الكلية حاملاً إجازة في الرياضيات البحتة وأصبحت أكثر قلقاً على الخطوة التالية، وبخاصة أن إمكانات مواصلة الدراسات العليا لم تكن متاحة بعد داخل المملكة. وكان من حسن الطالع أن حصلت على منحة دراسية لدراسة الفلك في الولايات المتحدة الأميركية فوافقت، على الرغم من أنني لم أكن أتطلع إلى تلك الدراسة، لأحقق حلماً كان يراودني وهو الدراسة في أميركا.

## خامساً: الوسط الجامعي الأميركي

حصلت على قبول من جامعة وسكنسن وفي مدينة ماديسون على وجه الخصوص وهي من ولايات وسط الغرب الأميركي، وتتميز بجليدها وسكانها من أصول ألمانية اسكندنافية وهي ولاية مشهورة بتفتحها وليبراليتها الديمقراطية ووجود الطبقة الوسطى العريضة. وكنت قبل سفري تزوجت من ابنة عمي التي رافقتني في رحلتي الجامعية إلى أميركا، الأمر الذي يعني استقراري العاطفي، لكنني أصبحت أيضاً مسؤولاً عن نفسي وعن مصير حياتنا الزوجية المشتركة.

من حسن حظنا أحاطت بنا الجالية العربية الطلابية وسهلوا لنا أمور التكيف مع الحياة الجديدة، التي كانت تختلف تماماً عن ماتعودناه في وسط حياة مكة. فبعد أن كنا نعيش في وسط نعرف فيه الجميع، وجدنا أنفسنا في وسط فاتر في علاقاته الاجتماعية، أو هكذا كنا نظن، وعلينا أن نهتم بأنفسنا وان نتقوقع حولها. حاولت أن أتعرف إلى الأنشطة الموجودة في الجامعة، فإذا بها فوق ما أتصور، ولا بد من الاختيار، بحيث على المرء أن يترك ما هو أقل أهمية لما هو أهم. كذلك علي أن اختار بين أن أبقى داخل إطار الثقافة العربية الإسلامية أو الانفتاح على أكثر من ذلك، وكذلك علي أن أختار بين أن أحدد معرفتي بالعالم العربي الإسلامي أو أن أسعى لتعلم جديد عن إفريقيا وبقية آسيا وأوروبا وأميركا اللاتينية، بل وعالم الولايات المتحدة الأميركية نفسها، ووجدتني أنظم نفسي للإفادة مما يدور حولي وبقدر ما أستطيع دون أن أفقد أيضاً زمام دراستي النظامية.

وفي هذه الأثناء عدت أفكر حول ما الذي أرغب في دراسته والتخصص فيه، ووجدتني، بسبب تأثير زميل عربي عزيز، أكثر انجذاباً إلى مجالات العلوم الاجتماعية التي وجدتني انتقل إليها بانجذاب عجيب بحيث انتهى بي المطاف بالتسجيل في قسم الاجتماع والتخصص في ذلك. لقد كان هذا التحول يعني الانتقال من مجال علمي إلى مجال علمي آخر ومن ثم إعادة التأسيس والقراءات. وهكذا كان، إذ وجهني المشرف كي أدرس وبصورة مكثفة، النظريات

(١٧) Daniel Lerner, *The Passing of Traditional Society* ( New York: Free Press, 1961).

الاجتماعية في أكثر من حلقة دراسية، إضافة إلى دراسات المناهج وأساليب البحث الاجتماعي وكذلك فلسفة العلوم الاجتماعية، وذلك قبل أن أدرس أياً من فروع علم الاجتماع، وكم وجدت الأمر مفيداً لاحقاً.

وإنني أتذكر اهتمام مشرفي في أن أقرأ ما أمكنني من الكتب الأصلية لدوركايم وماكس فيبر وماركس وزيمل وشوتس وغيرهم، من رواد علم الاجتماع وأن اطلع على ما كتبه كوفمان وكوبلان في فلسفة المناهج في العلوم الاجتماعية وجل ما كتبه فلاسفة العلم من وضعيين ووصفيين جدد وظواهريين وغيرهم. كذلك دراسة الأساليب الكمية الاحصائية و الكيفية. هذا واتذكر اهتمامه بأن أدرس الانتقادات التي وجهت للنظريات والمدارس النظرية وبخاصة ما قدمه انتوني غيدنيز ورايت وغولدنر وغيرهم.

ووجدتني مهتماً بدراسة العديد من المدارس الفلسفية التي كان لها أبلغ الأثر في تكوين الفكر الاجتماعي الحديث من ظواهرية إلى بنيوية إلى تأويلية وغيرها. إضافة إلى اهتمامي بدراسة تطبيقات هذه المدارس النظرية والفلسفات على مجتمعاتنا، فدرست على يد كاربات شيئاً عن الشرق الأوسط وتاريخه السياسي وعلى يد غاليسكي القرية والحياة الريفية عموماً، وفي منطقتنا على وجه الخصوص، وعلى يد فان سينا منهجية التاريخ الشفاهي، وتابعت غيرهم من الأساتذة على شكل دروس نظامية لبعض فروع علم الاجتماع. كذلك ازداد حرصي على الإفادة وعلى نحو منظم، مما يقدم من أنشطة علمية تعريفية في محيط الجامعة، فكنت أحرص على البرنامج الأفريقي والأميركي اللاتيني وتابعت باهتمام بعض الأنشطة التي اهتمت بالهند والتيبت وغيرها.

وما يحمد له أن هذه الأنشطة شاركتني زوجتي في العديد منها، وهي كان عليها أن تقوم بدراسة المرحلة الثانوية في أميركا وان تدخل المرحلة الجامعية في أثناء دراستي، وكان عليها أن تكمل ما بدأت عند عودتنا إلى أرض الوطن. لقد كان لحضورها هذه الأنشطة أن تولد فيما بيننا جواً من التعلق بالثقافة بمعناها الواسع، وأن تكون لنا اهتمامات مشتركة انعكست لاحقا على اهتماماتها الدراسية، إذ أصبحت تهتم بالهجرة والسكان[١٨].

## سادساً: التدريس والحياة الجامعية

كان من أهم الأمور التي تشغل بالي في أثناء دراستي، ما معنى ما أدرس بالنسبة إلى الوسط والثقافة اللذين انتمي إليهما، وهل يمكنني أن أضع بعض المفاهيم والأطر النظرية التي درستها موضع التنفيذ؟ بل كان هناك سؤال أكثر أهمية كنت أطرحه هو: ما هي العلاقة المتوقعة بين ما درسته وبين الإسلام وحضارته، وكنت قد انخرطت في أثناء دراستي الجامعية في أميركا في رابطة علماء العلوم الاجتماعية المسلمين ورابطة اتحاد الطلاب المسلمين في محاولة للوصول إلى إجابة تجعلني اطمئن نوعاً ما على أن هويتي الثقافية لن تضيع في خضم هذا الكم الكبير من النظريات والمفاهيم التي تولدها العلوم الاجتماعية. ولقد أفدت كثيراً من تلك الروابط وبخاصة رابطة علماء العلوم الاجتماعية المسلمين، الأمر الذي

(١٨) انظر كتابها: نور محمد باقادر العمودي، الهجرة الريفية الحضرية: دراسة في تكيف المهاجرين الى مدينة جدة (بيروت: دار المنتخب العربي، ١٩٤٤).

دفعني عند عودتي إلى أن تكون أول مقالة علمية أنشرها هي عن هذه المسألة[١٩]. ولا يزال موضوع علاقة العلوم الاجتماعية بالإسلام وعالم المسلمين من الأسئلة المحورية في حياتي، وما اهتمامي المتواصل بالدراسات الانتروبولوجية الحديثة إلا تأكيد لذلك.

وكان من اهتماماتي أن تتمكن زوجتي، وهي التي بذلت كل ما في وسعها من أجل أن أتمكن من التحصيل في جو هادئ، أن تواصل تحصيلها. وقد تمكنت، ولله الحمد، من الحصول على ليسانس في علم الاجتماع وهي تحضر الدكتوراه الآن. كذلك كان من الاهتمامات التي عدت بها إلى أرض الوطن تنشيط البحث العلمي الميداني بما يبرز ظروف وخصوصيات وضعنا الثقافي والاجتماعي وبما يمكن من تقديم تفسيرات من شأنها أن تجعلنا نفهم وضعنا على نحو أفضل وربما أن تساهم بذلك في تطور النظرية الاجتماعية عموماً. ولقد تطلب ذلك أن أفكر في العمل مع زملاء يشاطرونني الهم نفسه ويتطلعون إلى الآمال نفسها، وبخاصة على المستويين المحلي والإقليمي لإيماني بأهمية ذلك، وفعلاً سعيت للقيام بالأبحاث المشتركة ما أمكن والالتحاق بالجمعيات المهنية في منطقتنا ودولياً تأكيد ضرورة التواصل وبناء الجسور.

وختاماً يظهر لي أن الاهتمامات البحثية يدفع لها المحيط أكثر منه التوجهات الفردية والله وراء القصد.

(١٩) انظر ابو بكر احمد باقادر، «اسلمة العلوم الاجتماعية،» **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة الملك عبد العزيز، العدد ١ (١٩٨٠)، ص ١-٢٠.